christianlib.com

دير القديس البار الأنبا بولا
البحر الأحمر

ماذا يؤذى الإنسان ؟

للقديس يوحنا ذهبي الفم

مراجعة وتقديم
ترجمة وإعداد

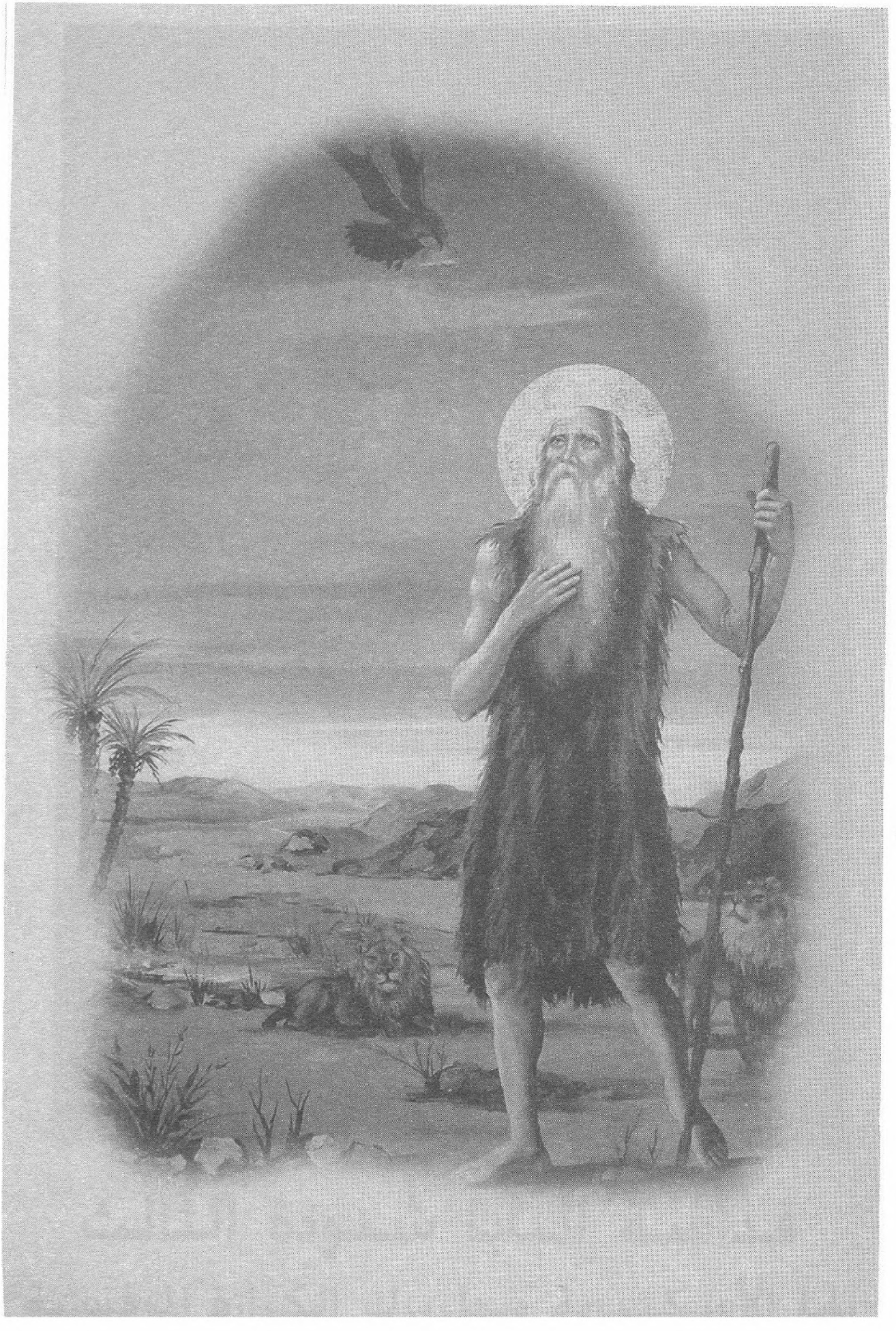

قداسة البابا شنودة الثالث

بابا الأسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

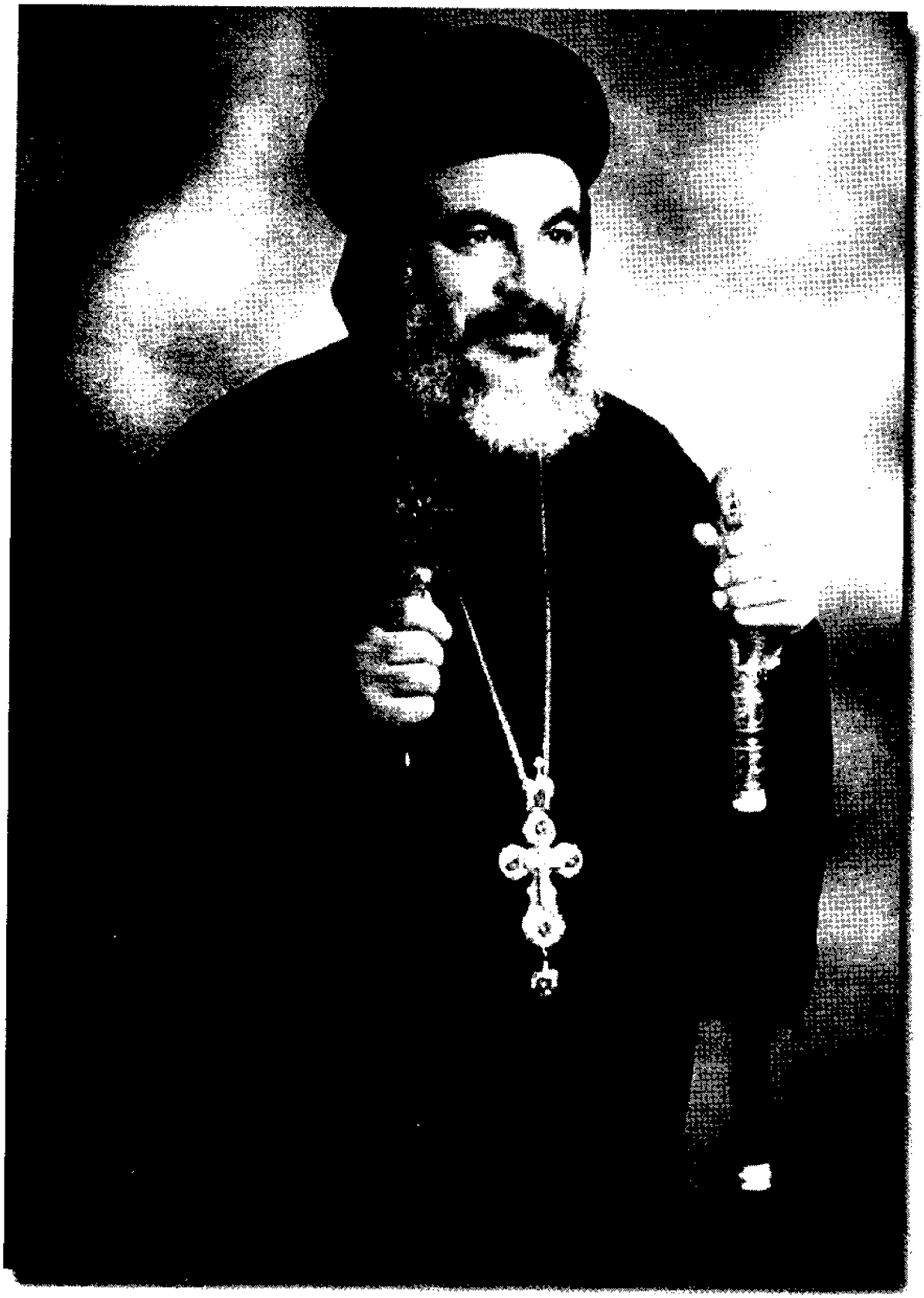

نيافة الحبر الجليل

الأنبا يسطس

أسقف ورئيس دير الأنبا أنطونيوس

لا يقدر أحد أن يؤذى الإنسان ما لم يؤذِ الإنسان نفسه.

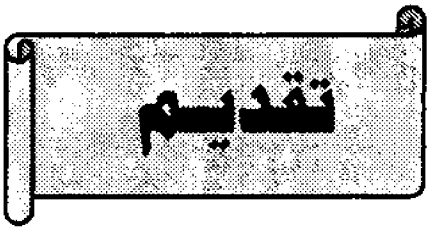

كتاب قيّم وعظة تصلح لكل الأجيال خرجت كلماتها النارية من القديس يوحنا ذهبي الفم وقام بترجمتها الأب الفاضل متى الأنبا بولا الذي وجد فيها منفعة للذين يجتازون بحر التجارب المتقلب الهائج ويظنون أن الله بعيدًا ونائم في مؤخرة السفينة...

لذلك أحبائي أرى منفعة كبيرة لكل من يقرأ ويفهم ويعي المعاني الروحية في هذا الكُتيّب الذي هو صرخة القديس يوحنا ذهبي الفم قائلاً: "لا يقدر أحد أن يؤذى الإنسان ما لم يؤذِ الإنسان نفسه". فضيلة الإنسان هي التمسك بالعقيدة السليمة والسلوك باستقامة، وخسارة الإنسان في التجربة تكون بسبب صغر نفسه وليس بسبب الآخرين..

أنظروا أحبائي القديس بولس الرسول يقول: " ***الآن أفرح فى آلامي لأجلكم*** " (كو ١: ٢٤). وليس ذلك فقط ***بل يفتخر أيضًا في الضيقات*** (رو ٥ : ٣). فماذا عزيزي عني وعنك؟ إن كل ما كتب في الإنجيل كتب لنا لكي نفرح ونعمل ونجاهد وننتصر ونُكَلَّل في ملكوت السماوات. فلنفرح يا أخوتي في الضيقات ونتقبلها بشكر فقد قال لنا القديس الأنبا بولا "من يهرب من الضيقة يهرب من الله" ... لماذا؟

لأن الله يظهر في الضيقة ويحملنا ويمسح كل دمعة ويُدخلنا معه، لأنه حيث يكون الله يكون خادمه.

أحبائي ما من تجربة مهما كانت قاسية تستطيع أن تنال من الإنسان اليقظ الذي لا يسيء إلى نفسه، ما من شيء يمنح الإنسان الاحترام والشرف سوى الفضيلة، لا المال ولا الثروة والغنى تقدر أن تجعل الإنسان أكثر حكمة، ولا الانتقام وإدانة الآخرين ومحبة المديح والخداع تقدر أن تجلب السعادة لقلب الإنسان. وبالجملة

لا شيء يقدر أن يؤذى الإنسان الصالح، لا شيء حتى لو كان العالم كله ضدّه.

أحبائي إنها وقفة مع النفس التائهة الهائمة وراء العالم وشهواته الخدّاعة، ينبغي أن نقف موقف الابن الضال الذي رجع إلي نفسه فقبله أبوه، لأنه إن لم يشأ الإنسان أن يصلح نفسه ويضبطها من الداخل بمصادره الخاصة فإن أحدًا لا يقدر أن ينفعه أو يصلحه....

إنها صرخة القديس يوحنا ذهبي الفم وتوسله إلينا جميعًا قائلاً لنا "أتوسل إليكم كونوا حذرين ويقظين كل حين واحتملوا بشجاعة وصبر كل الأمور المؤلمة التي تأتي عليكم لكي تنالوا البركات الأبدية في المسيح يسوع ربنا".

الرب يعوض أبانا الحبيب متى الأنبا بولا ويستخدم هذا الكُتيّب لمجد اسمه القدوس بصلوات وبشفاعات أمنا كلنا القديسة الطاهرة مريم والقديسين المُحبين لأولادهم أبينا القديس العظيم الأنبا أنطونيوس والبار

الأنبا بولا وبركة وصلوات راعي الرعاة أبينا الحبيب ذهبي الفم قداسة البابا الأنبا شنودة الثالث ولربنا كل المجد والإكرام والعزة والسجود الآن وكل أوان والي دهر الدهور آمين.

الأنبا يسطس

أسقف ورئيس دير القديس الأنبا أنطونيوس

البرية الشرقية - البحر الأحمر

كلمة شكر

" ***فمن يؤذيكم إن كنتم متمثلين بالخير***"(١بط ٣:١٣).

عزيزي القارئ الحبيب: هذه الآية هي موضوع هذا الكتاب الذي بين يديك وهو عبارة عن مقال للقديس يوحنا ذهبي الفم، هذا القديس الذي عانى الكثير من الآلام والتجارب وأيضًا النفي عن كرسي البطريركية. كل هذه احتملها بشكر وكان الراعي الذي بذل نفسه عن خرافه وفاضت روحه وهو في منفاه الأخير، ولا تندهش أيها القارئ الحبيب أنه كتب هذا المقال وهو فى عمق التجربة فى منفاه الأخير قبل وفاته ليس بكثير، وأعطاه عنوان" *لا يقدر أحد أن يؤذي الإنسان ما لم يؤذ هذا الإنسان نفسه*"، وأرسله مع خطاب إلى ابنته الروحية الشمّاسة أولمبيا.

أشكر الرب الذي أعانني على ترجمة هذا المقال عن النص الإنجليزي الموجود في سلسلة كتب

The **Nicene &Post Nicene fathers**

وقمت بإضافة شواهد الآيات.

من أعماق قلبي أتقدم بخالص الشكر والامتنان إلى حضرة صاحب النيافة الحبر الجليل الأنبا يسطس- أسقف ورئيس دير القديس العظيم الأنبا أنطونيوس بالبرية الشرقية - لتشجيعه ونصائحه لي وتفضله بمراجعة وتقديم هذا الكتاب بالرغم من مسئولياته الكثيرة، الرب يديم لنا حياته الغالية سنينًا عديدة.

كما أنني أشكر أبائي رهبان الدير الذين ساعدوني كثيرًا بمجهوداتهم وصلواتهم وإرشادهم، وأيضًا كل من له تعب فى هذا العمل. إله السماء يعوِّضهم خيرًا في ملكوته.

أرجو من إلهنا الصالح أن يجعل هذا الكتيِّب سبب بركة ومنفعة للكثيرين وتعزية لمن يتعرضون لصنوف من الأذى والعذاب من الآخرين.... بشفاعات القديسة الطاهرة العذراء مريم، والقديس العظيم الأنبا انطونيوس والقديس البار الأنبا بولا أول السواح، وبركة صلوات أبينا الطوباوى صاحب القداسة والغبطة البابا شنودة الثالث إله السماء يثبّته على كرسيه سنينًا عديدة وأزمنة هادئة مديدة.

متى الأنبا بولا

الصوم الكبير ٢٠٠٦

هدف المقال

إنني أعلم جيدًا أن هذا المقال سيعتبره هؤلاء الأشخاص مظلمو الفكر الطماعون المفكرون بالأرضيات والمستعبدون لملذات الجسد ولا يفكرون في الروحيات أنها شئ غريب ومتناقض وغير مألوف لديهم وسوف يضحكون بإفراط. ومن بداية الموضوع سيدينونني على التكلم بما يعتبرونه مستحيلاً وغير معقول، وبالرغم من هذا فإنني لا أكف عما تعهدت به وسوف أستمر بأوفر جهد لبرهان ما وعدت به. هؤلاء الذين ينظرون إلى الموضوع بهذه النظرة، أرجوهم ألا يثيروا ضجيجًا واضطرابًا لكنّي أنصحهم بأن يتريثوا حتى نهاية الحديث وأنا أثق أنهم سوف يقفون في صفى وسيكونون بجانبي، وسوف يدينون أنفسهم ويكتشفون أنهم كانوا مخطئين وسيعترفون بخطئهم ويعتذرون ويطلبون المغفرة عن رأيهم الخاطئ فى هذا الموضوع وسوف يعبِّرون عن عظيم امتنانهم لي، مثلما يعبِّر المرضى لأطبائهم عندما يُشفون من أمراضهم التي

كانت تنهك أجسادهم. لذلك أطلب منك ألا تخبرني بحكمك الآن لكن تمهّل حتى تسمع حججي كاملة وعندئذ سوف تكون قادرًا أن تصدر حكمًا نزيهًا دون إعاقة من الجهل الذي يمنع إصدار الحكم الصائب.

القضاة في الإشكالات العلمانية عندما يرون محامى أحد الطرفين قد قدم خطابًا هائلاً وسيلاً من الكلمات المقنعة وشمل كل شئ إلا أنهم لا يصدرون الحكم عاجلاً لكنهم يستمعون بكل صبر لمحامي الطرف الآخر الذي في خصومة معه، وحتى إن بدا حديث الأول منطقيًا ومقنعًا إلي حد كبير لكنهم ينصتون بغير تحيُّز للطرف الآخر.

فى الحقيقة إن تفوُّق القاضي ومهارته تظهر فى الفحص والتحقيق بكل دقة فى كل ما يدَّعيه كل طرف ثم بعد ذلك يصدر حكمه النهائي.

وبدل الخطيب (المحامي) نحن لدينا المفهوم العام الذي تأصل عبر العصور وقد رسخ في أذهان الجميع وهو الذي يحتج عما يحدث الآن في العالم قائلاً:" إن كل الأشياء انقلبت رأسًا على عقب "، إن الجنس البشرى تعمُّه الفوضى

وكل يوم هناك الكثيرون مظلومين ومهانين يتعرضون للعنف والأذى، الأقوياء يتسلطون على الضعفاء، والأغنياء على الفقراء، وكما أنه من المستحيل أن تعدَّ أمواج البحر كذلك من المستحيل أن تحصى ضحايا الإهانات والدسائس والمؤامرات. وللأسف ليس هناك شيء يمكن أن يمنع هذا الوباء وهذه الفوضى، لا القانون ولا الخوف من وجود الحكام، لكن الشر يزداد يومًا بعد يوم، ونوح وبكاء وتنهُّدات المعذَّبين أصبح شيئًا مألوفًا وفى كل مكان. حتى القضاة الذين عملهم هو منع هذه الشرور هم أنفسهم الآن يلهبون الفوضى ويثيرون الاضطرابات. ومن ثم نجد نوعًا من الناس لا مشاعر لهم، من النوع الدنئ قد أصابهم نوع جديد من الجنون فيتهمون التدبير الإلهي عندما يرون رجلاً صبورًا يتعرض للقسوة والاضطهاد والظلم، وآخر وقح وخسيس أو وضيع النسب وقد أصبح غنيًا ويتقلد السلطة وصار مرعبًا لكثيرين ويسبب لهم مشاكل لا حصر لها. وهذا نراه يحدث الآن في المدن والقرى في الصحراء وفى البر والبحر.

إن أهمية حديثي هذا تأتى لأنه يتعارض تمامًا مع ما يزعم هؤلاء وأختلف في الرأي معهم كما قلت من البداية، لكنه مفيد وحقيقي ونافع لمن ينتبه إليه ويقتنع به، والذي أخذت على عاتقى أخذت على عاتقي أن أبرهنه هو أنه ما من إنسان يُؤذَي من الآخرين لكن هو الذي يؤذي نفسه.

الشر وطلاح الإنسان

ولكي أجعل كلامي بسيطًا وأكثر وضوحًا دعونا أوّلا نُعرِّف ما هو الظلم ومن أي الأشياء تتكون مادته؟ وما هي الفضيلة وما الذي يخربها؟ وماذا ظاهريًا يفسدها لكن في الحقيقة لا.

هنا يجب أن أستعين ببعض الأمثلة كي أوضّح لكم أن كل شيء له ما يفسده؛ فالحديد يفسده الصدأ والصوف تفسده العثة، وقطيع الماشية تأكله الذئاب، والنبيذ يفسد بالتخمر ويصبح طعمه لاذعًا، والعسل يفقد حلاوته الطبيعية ويصير مذاقه مرًّا، ونبات الذرة يخرب بالعفن

الفطـــري، والفاكهـــة تفســـد بالجفـــاف، وأوراق الكرمـــة وأغصانها يؤذيها الجراد، وبعض الأشجار تفسد باليرقـــات، ومخلوقات أخرى غير عاقلة تصاب بأمراض مختلفة. ولـــن أطيل في سرد باقي الأمثلة، لكن أقول حتى جســـدنا هـــذا يصاب بالحمَّى والشلل وأمراض شتَّى.

هذه الأشياء التي ذكرتها تتعرض لشيء يفسد مزيتها، لكـــن تعالوا بنا لنرى ماذا يؤذى الجنس البشرى، ومـــاذا يخـــرب فضيلة الإنسان وصلاحه؟. يعتقد الكثيرون أن هناك أشـــياءً عديدةً تضـــر صـــلاح الإنســـان، وأنـــا ســـأذكر أوّلا الآراء الخاطئـــة وبعد دحضها أبيِّن وأوضح ماذا بالحقيقـــة يفســـد صلاح الإنسان وفضيلته، وأقيم الدليل الواضح أنه مـــا مـــن أحد يمكنه أن يؤذينا أو يجلب الخراب علينا ما لم نؤذِ نحـــن أنفسنا.

ماذا تقول هذه الجموع ذات الآراء المغلوطة الخاطئة؟. إنهم يزعمون أن هناك أشياءَ كثيرةً تفسد فضيلة الإنســـان، البعض يقول إنه الفاقة والبعض الآخر إنه مرض الجســـد،

وآخرون إنه فقدان الأملاك والثروة، وغيرهم يتهم الوشاية والنميمة، وأخيرًا الموت. هؤلاء القوم نجدهم دائمًا ينوحون ويندبون على هذه الأشياء، وبينما هم يشفقون على الأشخاص المعَذَّبين،المتألمين ويرثون لهم ويذرفون الدمع الثخين، نجدهم يصرخون بهياج الواحد تجاه الآخر قائلين:" انظر مدى الكارثة التي أحدقت بفلان لقد فقد كل ثروته مرة واحدة "، ويقول آخر:" وفلان أصابه مرض خطير وقد يأس الأطباء من علاجه "، والبعض يبكون وينوحون على نزلاء السجون والمطرودين خارج البلاد ويعيشون فى المنفى، وغيرهم يندبون من سُلبَت حريتهم، والبعض الآخر يَرثُون من ماتوا غرقًا أو حرقًا أو سقطت عليهم منازلهم، لكن العجيب يا إخوتي أن لا أحد ينوح على هؤلاء الذين يعيشون فى الشر، بل على النقيض - والذي هو أسوأ - يقدِّمون لهم التهاني، وهذا التصرف يعد سبب كل أنواع الشر، وكما طلبت منكم ألا تتعجلوا وتحدثوا شغبًا وضجيجًا دعوني الآن أبرهن لكم على أن هذه الأشياء التي ذكرتها لا تستطيع أن

تؤذى الإنسان الذي يحيا في يقظة وانتباه ولا أن تفسد فضيلته.

اخبروني: إذا فقد إنسان كل ثروته بواسطة اللصوص أو الناس النصّابين، أو جرّده خادمه الماكر الخبيث من كل أمتعته، فأي ضرر تُلحقه هذه الخسارة المادية بفضيلة هذا الإنسان؟.

الفضيلة ومن أين تنشأ

دعوني أوّلا أوضح لكم ما هي فضيلة الإنسان، ولكي يكون كلامي واضحًا وبسيطًا للكثيرين فإني أستعين ببعض الكائنات الأخرى كوسيلة إيضاح:

مثلاً ما هي أفضلية الحصان؟ هل لأن لجامه مرصع بالذهب، ومجموعة من الخيوط الحريرية تثبت الشكيمة، ويزينونه بملابس ملونة جميلة وخيوط ذهبية، وعلى رأسه غطاء مزين بالجواهر، وخصلات شعره مضفورة بشريط من الذهب، أم أفضليته لأنه قوى ورشيق في جريه وله حوافر

قوية دليل التربية الحسنة، ولديه شجاعة تؤهله لسفر طويل وحرب ضروس، ويقدر أن يتصرف في ميدان المعركة برصانة ويحافظ على فارسه حتى لو حلت الهزيمة.

هذه هي القدرات التي تجعل هذا الحصان أفضل من غيره وليست الأشياء الأخرى. وماذا نقول عن الحمار والبغل ما الذي يميّزهما؟ أليست قوتها على حمل الأثقال بصبر واستكمال السفر بسهولة ولها حوافر أظلاف مثل الصخر!.

هل أحد يجرؤ على القول بأن الزخارف والزينة الخارجية تسهم في أفضليتهم ومزيتهم؟ بالطبع لا. وبالنسبة للنبات أي نوع من الكروم نُعجَب به؟ الكرمة الغنية بالفروع والأوراق، أم الأخرى المحمَّلة بالأثمار! وبأي شيء تتميز الزيتونة عن غيرها؟ هل بالأوراق الوفيرة والأغصان الكبيرة، أم بكثرة الثمر؟!.

حسنا والآن دعونا نطبق هذا على الإنسان؛ ونعرِّف ما هى الفضيلة وما الذي يميز إنسان عن آخر؟.

تعالوا ننظر بعين الاهتمام إلى ما يمكن أن يفسد الفضيلة ويخربها. ما هي الفضيلة؟ ليست الغنى كي ما تخشى الفقر، ولا الصحة كي ما تهاب المرض، ولا رأى الناس كي لا تنظر بانزعاج إلى الصيت الردئ، ولا الحياة التي لأجلها ترتعب من الموت، وأيضًا ليست في الحرية كي ما تتحاشى العبودية. إنما فضيلة الإنسان في التمسك بالعقيدة السليمة والسلوك باستقامة، هذه التي لا يقدر حتى الشيطان أن يسلبها من الإنسان اليقظ الذي يحفظها ويحرسها بكل عناية وتدقيق، وهذا تعيه تمامًا الشياطين الخبيثة الشرسة.

لقد سلب الشيطان أيوبَ كل ثروته ليس ليجعله فقيرًا، كلاّ بل ليجبره على التجديف على الله، وعذّب جسده بالمرض ليس ليصبح طريح الفراش، بل ليزعج روحه، وحوّله فقيرًا بعد أن كان غنيًا (هذه الكارثة التي تبدو أفظع الكل) وصيَّره بدون أولاد بعد أن كان يحيط به أبناء كثيرون، وأصاب جسده بجروح وقروح أكثر قسوة وعنفًا مما يسببه الجلادون لنزلاء السجون، لأن أظافرهم لا تقدر

أن تمزّق أجساد أولئك الذين تحت قبضة أيديهم مثلما كانت الديدان تنخر في جسد أيوب.

وبعد أن أشاع الشيطان عنه صيتًا رديئًا وجعل أصدقاءه يوبخونه قائلين له: "**إن الله يغرمك بأقل من إثمك**" (أى ١١: ١٦). وكانوا يلقونه بكلمات الاتهام، ولم يكتفِ الشيطان بطرده من المدينة ومن بيته لكن جعل المزبلة له بيتًا، ومع كل هذا لم يستطع أن يسبب أي خسارة لنفسه البارة، بل جعله أكثر غبطةً وتطويبًا.

لقد استعمل الشيطان كل أسلحته ضده، وسلبه كل شيء - ثروته وأبناءه وصحته - لكنه فشل فى أن يسلبه صلاحه، بل ازداد أيوب في الفضيلة وبعد كل هذه التجارب، نال ثقة لا حد لها بعد أن جاهد وانتصر في هذه المواقع الشرسة.

والآن بعد أن رأيتم هذا الإنسان الذي عانى كل هذه الآلام والعذابات ليس من يد إنسان بل من الشيطان- الذي هو أشرّ من جميع البشر- وثبت ولم يتأذى، فهل بعد هذا يلقى الإنسان باللوم على الآخرين بأنهم سبب أذيته

وخسارته، وهل مثل هذا الإنسان يستطيع أن يصمد في المستقبل؟!.

الشيطان المملوء خبثًا بعد أن أشهر كل أسلحته وأعد كل عدَّته وحاك كل مؤامراته الشريرة ضد أيوب وضد أسرته لم يقدر أن يؤذيه، بل بالحرى أفاده، فكيف يتهم أناس بعضهم الأخر قائلين أنهم قد تأذوا منهم، في الحقيقة هم الذين آذوا أنفسهم.

هل يؤذى الشيطان الإنسان

يقول واحد إن إبليس آذى آدم وأزعجه وأخرجه من الفردوس. أجيب لا: إن الذي آذى أدم هو غفلته وإهماله، إنه كان يفتقر إلى اليقظة والانتباه وضبط النفس.

انظروا إلى أيوب لقد استخدم معه الشيطان كل أسلحته القوية والمتنوعة ومع ذلك لم يقدر أن يقهره، وبكل بساطة دحر آدم، لقد آذى آدم نفسه بغفلته وتوانيه.

هل تأذّى أيوب من البلايا التي أحاقت به؟ من فقد أملاكه، وتجريده من كل أمتعته، وطرده من أرضه وميراثه ومعاناته الفقر المدقع؟. أقول لكم كلاّ لم يتأذّ بل بالحري انتفع.

قولوا لي يا إخوتي ألم يَجُل آباؤنا الرسل مبشرين في جوع وعطش وعرى، فهل آذتهم هذه الأشياء، أم جعلتهم أكثر تألقًا وتطويبًا ومجدًا، واقتنوا لأنفسهم معونة كبيرة من الله! وماذا عن لعازر المسكين هل أضرَّ به المرض؟ وهل آذته القروح والفاقة وعدم وجود معين له؟ أليست هذه

الأشياء هي التي جعلت له إكليلاً من الزهور أكثر إبداعًا. وأي ضرر أصاب يوسف بعد أن أشاعوا عنه صيتًا رديئًا في موطنه وأيضًا في أرض مصر؟ لقد اتهموه أيضا بالفسق والزنا، وهل آذته العبودية والغربة؟!.

إننا ننظر إليه بكل تقدير وإعجاب.

ولماذا أتكلم عن الفقر، والصيت الردئ، والنفي إلى أرض غريبة؟ وعن العبودية؟ بل دعوني أتسأل أي خسارة سببها الموت لهابيل، على الرغم من أنه موتًا بشعًا ومباغتًا وارتكبه أخوه؟ أليس لهذا السبب يُمدَح هابيل في العالم كله وعلى مدى الأجيال.

ألم تروا معي الآن أن الحديث أصبح واضحًا جدًا، لقد كشف الحقيقة! ما من إنسان يتأذى ويُضرُّ من آخر، ليس فقط هذا بل هؤلاء الذين ينتبهون لأنفسهم سوف ينالون أكبر منفعة من هذه المكائد التي يتعرضون لها.

يتساءل أحدكم: إذن ما هي ضرورة الثواب والعقاب؟ وما هي ضرورة الجحيم؟ ولماذا كل هذا التهديد والوعيد؟ طالما لا أحد يُؤذِى ولا آخر يتأذى منه؟

عفوا لا تخلط الأمور لأنني لم أقل هذا؛ نعم هناك من يريد أن يؤذى ويرتكب شرورًا كي يوقع الأذى بالآخرين، لكن لا أحد يتأذى! تقول لي كيف هذا؟ كيف لا يتأذى أحد ويوجد هناك من يسببون الأذى؟.

بنفس طريقة التوضيح التي ذكرتها، انظروا إلى إخوة يوسف لقد فعلوا حقًا ما يؤذيه ويضرّه أما هو فلم يخسر شيئًا. أيضًا قايين وضع فخاخًا عديدةً لأخيه هابيل لكن هابيل لم يقع فى أحدها. لهذا هناك الجزاء والعقاب، الله لم يلغِ المكافأة لهؤلاء الممسكين بالفضيلة بالرغم من المؤامرات التي تستهدفهم، وأيضًا لم يلغِ العقاب للناس الأشرار على خبثهم.

إن هؤلاء الذين يكابدون الآلام والعذابات ويصبرون عليها يصبحون أكثر تطويبًا ومجدًا، وهذا ليس هدف الذين يدبرون لهم المكائد والدسائس، لكن لبسالة هؤلاء الضحايا، لذلك هناك مكافأة تنتظر هؤلاء لحكمتهم وعقوبة تنتظر الأشرار لشرورهم. هل فقدت كل ثروتك؟ استمع إلى النبي

القائل: "**عريانًا خرجت من بطن أمي وعريانًا أعود إلى هناك**" (أى ١: ٢١).

وقول بولس الرسول:" **لأننا لم ندخل العالم بشيء وواضح إننا لا نقدر أن نخرج منه بشيء**" (١تى٦: ٧).

هل قالوا عنك رديئًا وهل فعلوا بك إساءات لا حصر لها؟ تذكر قول الكتاب:" **ويل لكم إذا قال فيكم جميع الناس حسنًا** " (لو٦: ٢٦). و" **طوباكم إذا أبغضكم الناس وإذا افرزوكم وعيروكم وأخرجوا اسمكم كشرير من اجل أبن الإنسان، افرحوا في ذلك اليوم و تهللوا فهوذا أجركم عظيم في السماء**" (لو٦: ٢٢،٢٣).

هل نُفِيت إلى أرض غريبة؟ حسنًا فإنه ليس لنا هنا مدينة باقية، والعالم كله أرض غربة. وإذا أصابك مرض مؤلم عضال، استشهد بقول الرسول:" **وإن كان إنساننا الخارج يفنى فالداخل يتجدد يومًا فيومًا**" (٢كو٤: ١٦). وإذا مات أحد ميتة شنيعة انظروا إلى يوحنا المعمدان كيف قُطعَت رأسه بالسيف في السجن وأتوا بها على طبق مكافأة

للعاهرة على رقصها. فتبصروا في المكافأة التي سوف تجنونها من الضيقات.

إذا أطبقت التجارب على إنسان ما واحتملها بشكر فإنها تُذكِّره بخطاياه وتحثّه على التوبة وتقوده إلى أعمال البر فكم لها من مميزات وفوائد عظيمة هذه الضيقات لهؤلاء الذين يحتملونها بشجاعة وصبر.

التجارب تؤدى إلى المجد

إذن ليس فقدان الثروة ولا الافتراء والتعيير، ولا العزل والنفي ولا الأمراض ولا التعذيب ولا حتى الموت الذي هو مرعب ومخيف أكثر من هذه جميعًا، تقدر أن تؤذى الإنسان بل بالأحرى تفيده وتنفعه.

هل تقدر أن تخبرني من أي شيء يُضَرُّ الإنسان طالما كل هذه الأشياء التي ذكرتها لك لا يمكن أن تؤذيه؟

الآن أسعى جاهدًا كي أثبت لك العكس وأبيِّن لك أن الذي يخسر ويتأذى وتصيبه شرور لا برء منها هم هؤلاء

الأشخاص الذين يرتكبون هذه الأفعال الشريرة. فما أشد تعاسة قايين بعد أن قتل أخاه وما أسوأ حالة هيروديا امرأة فيلبس التي تسببت فى قطع رأس يوحنا، وما أتعسهم إخوة يوسف بعد أن باعوه وجعلوه يعيش فى أرض الغربة، والشيطان نفسه الذي أصاب أيوب بصنوف شتَّى من الكوارث والنكبات سوف ينال عقابًا صارمًا ليس بسبب شروره الكثيرة الأخرى، بل أيضا لحملته ضد أيوب.

انظروا كم أصبحت المناقشة واضحة الآن وأثبتت أن هؤلاء الذين تداهمهم هذه الغارات لم ينلهم أذى، بل بالعكس كل الضرر والأذى يرتد على رؤوس أولئك الذين يكيدون لهم "**يرجع تعبه على رأسه وعلى هامته يهبط ظلمه**" (مز٧: ١٥ -١٦).

ليس الثروة، ولا التمتع بالحرية، ولا الحياة في أرض الوطن، ولا باقي الأشياء التي ذكرتها، لكن فقط أعمال البر التي يفعلها الإنسان هي التي تكّون الفضيلة، عندما تكون الإساءة موجهة إلى هذه فإن فضيلة الإنسان لن تمس بأي حال. لنفترض أن شخصًا ما أساء إلى حتى معنويات نفسك

فإذا عانيت خسارة فإنها تأتى من داخلك أنت وليس بسبب الآخر. تقول لي: كيف يكون هذا؟ أجيبك قائلاً: إذا كان هناك أحد يعيش مقهورًا من آخر، أو سُلبَت كل ثروته أو كابد بعض المصائب الأخرى، ونطق بكلام تجديف على الله، يكون بذلك ناله أذى بالطبع ولحقت به خسارة كبيرة، ومع ذلك أقول أن هذه الخسارة ليست بسبب الآخرين لكن بسبب صغر نفسه هو.

وما قد سبقت وقلته أكرره ثانية: ما من إنسان مهما كان شريرًا يقدر أن يهجم على شخص آخر بقسوة وعنف أكثر مما يفعل إبليس اللعين العدو غير الرحوم، عديم الشفقة، حتى هذا ما قدر أن يزعج أو يقهر هذا الرجل الذي عاش قبل الناموس وقبل زمن النعمة، مع أنه أطلق ضده كل أسلحته المتعددة والقوية من كل صوب وناحية. هكذا تكون قوة الروح السامية، هذا هو أيوب.

وماذا أقول عن بولس الرسول لقد عانى كثرة من المصائب يصعب على الإنسان حتى أن يحصيها، وُضِعَ في السجن مكبلاً بالأصفاد، جرّوه هنا وهناك، جلدوه وأيضًا

رجموه، ضُرِبَ على ظهره بالسياط، وأيضًا بالعصي، طُرِح في البحر، مرارًا عديدة أحدق به اللصوص، مواطنوه تطاولوا عليه، بُغِى عليه من خصومه وأيضًا من أقاربه ومعارفه، تعرَّض لمكائد عديدة، جاهد في جوع وعطش، ألمَّت به مصائب كثيرة بعضها كان وقتيًا والآخر دام طويلاً، ألم يقل: " **إني بافتخاركم الذي لي في يسوع المسيح ربنا أموت كل يوم**" (١كو١٥: ٣١). وبالرغم من كل هذه الآلام العديدة والنكبات البشعة لم ينطق بكلمة تجديف واحدة لكنه كان متهللاً فرحًا وتمجَّد بهذه الآلام وقال: " **الآن أفرح في آلامي لأجلكم** "

(كو١: ٢٤). وأضاف : " **وليس ذلك فقط بل نفتخر أيضًا في الضيقات**" (رو٥: ٣).

إذا كان هذا الرسول فرحًا في آلامه ومفتخرًا بالضيقات، أي عذر لك وأي دفاع تقدّمه إذا جدَّفت عند تعرضك لأبسط هذه العذابات.

الحرمان من المال ليس شرًا

لكنني أتأذى بطريقة أخرى – يقول قائل – حتى إن لم أُجدِّف! فإذا سلبوا أموالى فكيف أقدِّم صدقة؟.

أقول لك هذه مجرد ذريعة لأن الفقر لم يكن يومًا عائقًا لتقديم صدقات، هَب أن الحال وصل بك إلى أقصى درجات الفقر فإنك لم تصل إلى فقر هذه المرأة التي كانت تملك فقط حفنة دقيق (١مل١٧: ١٢). أو الأخرى التي لم تملك سوى فلسين (لو٢١: ٢). وكلتاهما قدَّمتا كل معيشتهما للمحتاجين، وكان هذا شيئًا يفوق كل اعتبار ولم يكن فقرهما عائقًا لفعل الرأفة والرحمة. والصدقة التي قُدِّمَت من الفلسين بالنيَّة السليمة ووفرة الغيرة فاقت الدراهم الكثيرة التي ألقاها كل الأغنياء في الخزانة.

لذلك حتى إذا كنتَ فقيرًا فلن تتأذى بل بالأحرى ستنتفع، وبإسهام بسيط تنال أجرًا أعظم من أولئك الذين يقدمون الكثير.

حتى إذا داومت على أقوالي هذه إلى الأبد فإن هناك قومًا ذوى طباع شهوانية يجدون بهجتهم في الزحف وراء الأشياء الدنيوية ويطربون بالأمور الأرضية الحاضرة هؤلاء من الصعب أن يتخلوا عن هذه الزهور التي سريعًا ما تذبل (وأعنى ملذات الحياة الحاضرة) أو حتى يتركوا ظلها. النوع الجيد من البشر يرجون الحياة الأخرى بينما النوع الحقير الخسيس يتمسكون بقوة بالأشياء الزمنية الفانية.

تعالوا بنا نخلع هذه الأقنعة المزيَّفة التي تبدو وكأنها جميلة لكنها تخفى تحتها ملامح قبيحة ودميمة، دعونا نكشف عن الوجه القبيح المملوء عاهات وعيوب الذي لتلك العاهرة وأعنى بها الحياة القاصرة فقط على الترف والثروة والقوة، إنها قذرة وحقيرة، مملوءة بالرجس والبغضاء ومكابدة الهموم، ومشحونة بكل مرارة، هذه هي الحياة التي تحرم أولئك المأسورين بها من كل صفح وغفران.

وعجبًا لهم فإنهم يشتاقون إليها ويسعون وراءها مع معرفتهم أنها مليئة بالكدر والقسوة ومكتظة بشرور لا حصر

لها: إراقة دماء، جرائم قتل، خوف ورعب، حسد وضغينة، مكائد ودسائس، قلق دائم وغمٌّ مستمر، لا تجلب نفعًا ولا تأتى بثمر، بل تذخر عقابًا وانتقامًا وعذابًا مُخلَّدا. وبالرغم من كل هذه الشرور فإننا نجد أنها تمثِّل طموحًا وشغفًا واشتياقًا لمعظم البشر وهذا يدل على حماقة أولئك الأسرى وليس لمزايا الحياة.

الأطفال الصغار يتلهفون على الدمى ويفرحون بها ولا يعيرون اهتمامًا للأشياء التي تخص الكبار ولهم عذرهم لأنهم غير ناضجين، أما أولئك المأسورين بملذات الدنيا فليس لهم عذر ولا يقدرون أن يقدموا دفاعًا، وبالرغم من أنهم بالغين لكن سلوكهم يدل على أنهم أقل دراية من الأطفال بأمور الحياة.

هل لك أن تخبرني لماذا تمثِّل الثروة طموحًا للبشر؟.

إنه من الضروري أن نبدأ من هذه النقطة، لأن أغلبية أولئك المصابين بهذا الداء ويسعون وراء الغنى والثروة، المال بالنسبة لهم يُعَد أثمن من الصحة والحياة، وأكثر احتياجًا من الصيت الحسن والحكمة، وأغلى من الوطن والأبناء

والأصدقاء والأقارب وأي شيء آخر. هذه نار وقد اندلع لهيبها إلى عنان السماء، وحمَّى شرسة ملكت زمامها في الأرض والبحر، وما من أحد يريد أن يخمد هذه النار، الكل يشارك في اضطرامها وتوهجها، المأسورون بها والآخرون الذين في طريقهم للأسر.

نحن نرى الجميع الزوج والزوجة، العبد والحر، الغنى والفقير كل واحد حسب استطاعته يحمل أحمالاً تضيف وقودًا نهارًا وليلاً إلى هذه النار، لكنها ليست أحمالاً من خشب أو حطب (لأن النار ليست من هذا النوع) لكن أحمالاً من أرواح وأجساد الأشرار، أحمالاً من إثم وشرور ومكائد، هذه هى المواد التى اعتادت هذه النار أن تتدلع بها.

الأغنياء لا يريدون أن يقهروا هذا الهوى الفظيع حتى لو طافوا العالم كله، والفقراء يحاولون اللحاق بهم، نوع من الجنون لا برء منه، وشر لا يمكن ردعه، ومرض غير قابل للشفاء قد امتلك زمام الروح للجميع، هذا الهوى طغى على كل شيء، وأطاح بكل ما هو حسن خارج النفس حتى

العاطفة، سواء عاطفة نحو الأصدقاء أو الأقارب أو حتى الزوجة والأبناء لا يهم. فهل هناك للإنسان شيء أعز من هؤلاء؟، لكن الكل طُرِح إلى الأرض وداسته الأقدام.

حينما يمتلك هذا العشق المتوحش غير الآدمي – وأعنى به محبة المال – روح الإنسان يكون كمثل محظيّة طاغية ومتسلطة، بربرية ومتوحشة، ومثل عاهرة غالية الثمن تفسد وتستنزف أولئك الذين ارتضوا أن يستعبدوا لها وتصيبهم بآلام وأوجاع ومخاطر لا تحصى. وعلى الرغم من أنها مخيفة وقاسية وعنيفة ومتوحشة ولها وجه البربري، أو قُل وجه حيوان مفترس أكثر وحشية من الذئب والأسد، لكنها تبدو للمأسورين بها أنها غاية فى اللطف والمودة، و أحلى مذاقًا من العسل ومع أنها تصوِّب نحوهم كل يوم سيوفًا وأسلحة، وتحفر لهم حفرًا تقودهم إلى الهلاك، وتنصب لهم شراكًا وفخاخًا لا حد لها إلا أنها تجعل هذه الأشياء مصدرًا للطموح لأسراها وأيضًا من يرغبون أن يلحقوا بهم، ومثل خنزيرة تفرح بانغماسها فى الطين والحمأة، وخنفساء تبتهج بزحفها الدائم فوق الروث

والقاذورات كذلك هؤلاء المستعبدون لمحبة المال إنهم أكثر بؤسًا من هذه المخلوقات، لان الرجس فى حالتهم أفظع والوحل والطين أكثر نتانة، لأنهم يظنّون أن هذا يجلب لهم سرورًا وبهجة، بينما السرور والفرح لا ينشأن من طبيعة هذه الأشياء لكن من فهمهم المريض المبتلى بهذا الذوق السخيف.

أولئك البشر لديهم ذوق أحط من هذه المخلوقات البهيمية فكما أن السرور والبهجة ليس في الوحل والقاذورات بل فى الطبيعة المنحطة لهذه المخلوقات غير العاقلة المنغمسة فيه، كذلك يكون الحال لأولئك البشر المنغمسين فى الشهوات.

محبة المال أصل كل الشرور

والآن هل يمكن معالجة هؤلاء؟، نعم من المستطاع شفاؤهم إذا أنصتوا بآذانهم، وفتحوا قلوبهم ليسمعوا لنا. إنه من العسير أن تأخذ الحيوانات من بيئتها القذرة التي

تعيش فيها إلى بيئة أخرى نظيفة، إنها ستعود إلى بيئتها الأولى لأنها غير عاقلة ولا تدرك ما لخيرها. أما البشر الذين هم أكثر لطفًا ووداعة من كل المخلوقات وشرَّفهم الله بنعمة العقل والكلام، فمن السهل جدًا إصلاحهم إذا رغبت فى ذلك، كم هو سهل عليك أيها الإنسان أن تتحرر من الوحل والنتانة والروث ورائحته الكريهة، وإني أسألك أيها الإنسان لأجل أي شيء يبدو لك الغنى والمال يستحق كل هذا العناء والتعب والكد؟ هل بسبب اللذة التي تجلبها المأكولات الشهية؟، أم بسبب الفخر الذي يجلبه لك الناس الذين يتوددون إليك لأجل ثروتك، أو لأنك تقدر أن تدافع عن نفسك ضد أولئك الذين يضايقونك وتصبح بذلك المال مصدر خوف للآخرين؟ هل من سبب آخر غير هذه الأشياء؟!.

إن الثروة لا تقدر أن تجعل إنسانًا أكثر حكمة أو انضباطًا للنفس، ولم تصيّر إنسانًا أكثر وداعة وتبصُّرًا ولا أكثر عطفًا وحبًا للخير ولا تجعله ينأى عن الغضب أو الشره واللذة، لم تدرِّب إنسانًا ليصير لطيفًا وهادئًا، ولا علَّمته الوداعة، ولا زرعت فى نفسه أي فضيلة.

هل تستطيع أن تخبرني أي من هذه يستحق أن تبحث عنه أو تشتاق إليه أو تتعب لأجله، إن الثروة تجهل تمامًا كيف تنمى فضيلة أو تزرع شيئًا صالحًا بل بالعكس إذا وجدت مخزنًا من الأشياء الصالحة أتلفته وأفسدته ويبَّسته، بالإضافة إلى ذلك إنها تقتلع الفضائل لتزرع الرذائل المضادة لها: خلاعة، غضب، حقد، كبرياء، عجرفة، حماقة وغيرها...

الآن أكفُّ عن الكلام عن هذه الأمور، لأن هؤلاء المصابين بهذا الداء لا يطيقون أن يسمعوا شيئًا عن الفضيلة والرذيلة، لأنهم مستعبدون لشهواتهم ومستسلمون لها تمامًا. فلنترك الكلام عن هذه مؤقتًا وتعالوا بنا لنرى هل للثروة أي سرور أو أي شرف وفخر؟. من وجهة نظري إنني أرى العكس تمامًا.

بادئ ذي بدء من فضلكم هيا بنا نتأمل مائدة الأغنياء ومائدة الفقراء وطعام كل منهما، ونتساءل أيهما يتمتع بالفرح الحقيقي الصافي؟ هل أولئك الذين يجلسون طوال اليوم إلى المتكئات، ويصلون الإفطار بالعشاء، وتنتفخ

معدتهم بالأطعمة وتظلم حواسهم وتتبلد، ويحمِّلون السفينة بشحنات زائدة من الأطعمة تجعلها تتوقف عن الإبحار ثم تتشرب بالماء وتغرق، أعنى سفينة الإنسان، ويخترعون الأغلال والقيود ويصبح جسدهم مقيدًا كلية بأصفاد السُكرِ والتخمة التي هي أشد من القيود الحديدية ولا ينعمون بنعاس هادئ أبدا لأن الأحلام المخيفة تداهمهم، وتراهم أكثر بؤسًا من المعتوهين المجانين وكأن روح نجس أصابهم فيبدون لعبيدهم مثل المهرجين، أما للعبيد الأكثر عطفًا يبدون في مشهد مأساوي يثير الحزن والبكاء وذرف الدمع، ولا يقدرون على الكلام أو السماع لكن فقط يُحمَلون من المتكآت إلى أسرَّتهم، أو هؤلاء الناس اليقظين الفطنين، الذين يتدبرون في طعامهم نظرا لفقرهم، ويبحرون بوقود مناسب للسفينة ويجدون بعد الجوع والعطش الطعم اللذيذ فى طعامهم وشرابهم. ما من شيء يجلب الفرح والسرور والصحة مثلما تكون جائعًا وعطشانًا ثم تقبل على الطعام وتتناول الضروري البسيط منه وليس ما يتجاوز الحدود ويشكل عبئًا على الجسد لا يحتمله.

الفقراء والأغنياء

إذا كنت لا تصدق كلامي تعالى ندرس الحالة الجسدية والروحية لكليهما (ولا تأتى بالاستثناءات التي تحدث نادرًا لأن البعض يمكن أن يكونوا ضعفاء لأسباب أخرى لكن نحن نتكلم عن القاعدة الثابتة) فنجد أن هؤلاء الذين يعيشون بالاعتدال أجسامهم قوية وحواسهم نقية ويؤدون أعمالهم على الوجه الأكمل. أما أولئك الأغنياء النهمين تجد أجسادهم ضعيفة مترهلة، أنعم من الشمع، محفوفة بكثير من الأمراض، وسريعًا ما يهاجمهم النقرس والشلل والشيخوخة المبكّرة، ويصابون بالصداع والانتفاخ وعسر الهضم وفقدان الشهية، ويحتاجون إلى الذهاب للأطباء باستمرار وتناول الأدوية والرعاية اليومية. أخبرني هل هذه الأشياء تجلب السرور والبهجة؟ والآن أي من الفريقين يتمتع بالسعادة الحقيقية؟.

السعادة تتم عندما ترغب فى شيء ثم تناله وتحققه، فإذا كانت الرغبة أصلاً غير موجودة لأن كل الإمكانيات

متوفرة فقد انتفت السعادة وانعدمت. فالمرضى بالرغم من تقديم أشهى أنواع الأطعمة أمامهم لكنهم يتناولون منها باشمئزاز وتغصُّب لأن ليس لهم الشهية والرغبة التي تعطى مذاقًا لذيذًا للتمتع بالأكل.

ليس نوع الطعام والشراب هو الذي يولِّد الرغبة فى الأكل بل شهية الآكلين هي التي تدفعهم لتناول الطعام والتمتع به.

ونحن لدينا رجلاً حكيمًا اختبر الحياة جيدًا وعرف معرفة دقيقة كل ما يختص بالسعادة والفرح، قال الحكيم: " **النفس الشبعانة تدوس العسل وللنفس الجائعة كل مر حلو**" (أم٢٩ :٧). موضحًا لنا أن التمتع بالأطعمة لا يكمن في نوع الطعام لكن في شهية من يأكل. لذلك عندما أحصى النبي العجائب التي صنعها الله مع شعب إسرائيل في مصر وفى البرية، من ضمن ما ذكره قال:"**ومن الصخرة كنت أُشبعك عسلاً**" (مز٨١: ١٦).

إن الصخرة لم تخرج عسلاً لكن أخرجت لهم ماءً ليشربوا فما معنى هذا؟ حقيقة الأمر أن الشعب كان متعبًا جدًا ومنهكًا ويعانى من عطش شديد من طول السفر فاندفع

إلى الماء بلهفةٍ فكان اشتياقهم الشديد للماء ورغبتهم المُلحّة فى الشرب هى الشهية اللذيذة التي جعلت النبي يسمى الماء عسلاً نظرًا للبهجة والسرور التي جلبها الارتواء من ينابيع المياه هذه، ولا يعنى النبي أن الماء تحول إلى عسل أو الصخر أنبع عسلاً، لكن السرور الذي جلبه شرب الماء يضاهى العسل فى حلاوته لدرجة أنهم اندفعوا إليه بلهفة وشغف ليرتووا منه

وإذا كانت الأمور هكذا ولا يستطيع أحد أن يُنفى هـذا، فمن الحماقة أن ينكر أحد أن مائدة الفقراء يغمرها السـعادة والفرح الحقيقي بينما مائدة الأغنيـاء يكتنفهـا الانزعـاج والتأفف والدنس حتى ما هو فيها حلو يصير بالنسبة لهـم سبب تعب، كما قال الحكيم: " **أوجدت عسلا فكل كفايتك لئلا تتخم فتتقياه**" (أم٢٥ : ١٦).

المال سبب أوجاع الروح

قد يقول أحدكم أن الثروة تجلـب الشـرف لصـاحبها وتمكِّنه من القصاص من أعدائه بسهوله! قُل لي هـل هـذا سبب يجعلك ترغب فى اقتناء المال وتناضل للحصول عليه؟ الحق أقول لكم إن المال ينمى فينا أوجاعـًا ضارةً كثيـرة، فهو يؤدى بنا إلى الغضب والمشاجرة، ويحثنا على العجرفة والكبرياء، من أجل هذا يجب علينا بكل حـزم وإصـرار أن ندير ظهرنا إلى الثروة لأنها تولد فى قلبنا حيوانات مفترسة متوحشة وغاضبة تحرمنا احترام الآخرين لنا، وتسلب منّـا

الكرامة والشرف الذي يكنّه الناس إلينا، وتخدع وتُوهم البعض بعكس ذلك، فهي تزيّف الواقع وتقنعنا بالوهم والخيال أنها وديعة ولطيفة وفى الحقيقة هي على النقيض من ذلك تمامًا.

ومثل المحظيَّات اللاتي يظهرن جميلات فقط بالألوان والأصباغ وهنّ يفتقرن للجمال الحقيقي كذلك محبة المال تجعل الوجوه الدميمة والقبيحة تبدو وكأنها جميلة لهؤلاء المخدوعين بها، أيضا المال يجعل النفاق يبدو وكأنه احترام وتبجيل، لذلك أرجوكم ألا تثقوا في المديح الذي مبعثه الخوف والرعب، لأنه مثل الألوان والأصباغ، وإذا استطعت أن تكشف نوايا هؤلاء الذين يتملقونك وينافقونك سوف تجد داخلهم اتهامات وشكاوى كثيرة ضدك، ويكنّون لك بُغضًا وحقدًا أكثر من ألد أعدائك وأشد خصومك، ولو حدث وتغيَّرت الظروف وانكشف القناع وذال الخوف، مثلما تشرق الشمس وترسل أشعة شديدة الحرارة تكشف وتفضح الوجه الحقيقي لأولئك المحظيات - اللاتي تكلمت عنهن - حينئذ سوف ترى بوضوح أنك كنت مخدوعًا بأولئك الذين كانوا

يتوددون إليك لأنهم في الحقيقة يزدرون بك ويحتقرونك، وأنت كنت تظن أنهم يحترمونك لكنهم في الواقع يكرهونك وفى داخلهم يسبّونك ويفرحون لو رأوك تكتنفك المحن وتحيط بك المصائب.

ما من شيء يمنح الإنسان الاحترام والشرف سوى الفضيلة، ليس إرهابك للناس أو التخفي تحت قناع الخداع والوهم، بل الصدق والحقيقة والثبات في وقت الشدائد والمحن.

هل ترغب أن تنتقم من أولئك الذين يضايقونك ويزعجونك؟ لهذا السبب قلت لك يجب عليك أن تبتعد عن محبة المال لأنها تجعلك تشهر السيف ضد نفسك وتذخر لك حسابًا عسيرًا وعذابًا لا يُحتمَل يوم الدينونة، لأن الانتقام هو شر عظيم يحرمك من رحمة الله، والخطايا التي سبق الله وسامحك عليها وغفرها لك، يطالبك بها من جديد.

اذكروا العبد الذي ترك له سيده دينًا من عشرة آلاف وزنة ونال نعمة في عيني سيده لأنه توسل إليه، لكنه عندما خرج ووجد العبد رفيقه طالبه بمائة دينار وأخذ بعنقه ولم

يتركه، وبذلك أعلن عصيانه وتمرده ضد نفسه، وبقسوته على العبد صديقه حكم على نفسه وأدانها، ولهذا السبب فقط أُسلِمَ إلى المعذِّبين إلى أن يوفى العشرة آلاف وزنة لسيده، واستحق أقسى عقاب لأنه لم يستفد من العفو الذي منحه له سيده سابقاً.

هل لهذا السبب تسعى وراء الثروة ومحبة المال؟ إنها سوف تؤدى بك إلى خطايا من هذا النوع؟ أعتقد أنه يجب عليك أن تبغضها كخصم لدود وعدو شرس يجلب لك مخاطر لا حصر لها.

لعازر المسكين

يقول أحدكم إن الفقر يقود الإنسان إلى التذمر والنطق بكلام تجديف، وينحدر به إلى ارتكاب أفعال دنيئة، أقول لكم ليس الفقر لكن صغر النفس هو الذي يؤدى إلى هذا، انظروا إلى لعازر المسكين كان فقيرًا فقرًا مدقعًا، وكان سقيمًا عاجزًا وهذا فى حد ذاته تجربة أقسى من الفقر أو قُل يجعل

الفقر صعب الاحتمال، وبجانب الفقر والعجز لم يكن لديه من يرعاه أو يقدم له يد العون وهذا أيضا زاد من قسوة التجربة. الفقر والمرض كلاهما صعب جدًا ومؤلم، وعدم وجود أحد يخدم الفقير السقيم فإن المعاناة تصبح أصعب، والفاجعة أكثر قسوة، والعاصفة أقوى، والأمواج أعتى، والأتون أحمى واللهيب أشدّ. وإذا فحصنا الأمر مليًا لاكتشفنا محنة رابعة كان يعاني منها هذا المسكين، ألا وهى عدم مبالاة ذاك الرجل الغني الذي يسكن بجواره. وإذا أردنا تجربة خامسة وكأنها الوقود للنار سوف نرى بوضوح أن هذا الغنّي ليس فقط يعيش ببذخ وإسراف لكنه كان يرى هذا المسكين ليس مرتين أو ثلاث يوميًا بل مرات عديدة مطروحًا عند بابه ومنظره يجلب الحزن والرثاء وجسده العاري كان كافيًا بأن يجعل القلب الحجري يلين.

كل ذلك لم يؤثِّر في هذا الغني غير الرحوم ولم يقدم أي مساعدة لهذا المسكين، هذا الغني مائدته كانت مفروشة بأفخر الأطعمة ومزينة بباقات الزهور، وأجود أصناف الخمور موجودة بوفرة، وفريق من الطباخين يقومون

بالخدمة، والناس المتطفلين والمنافقين يأتون من الصباح الباكر، وفِرَق من المغنيين وسقاة الخمر والمهرجين، أمّا الغني فكان يقضى كل وقته في التسلية والمجون وشرب الخمر والشبع من الأطعمة والتمتع بالحفلات ولبس أفخر الثياب وأشياء كثيرة من هذا القبيل، وبالرغم من رؤيته للرجل المسكين الفقير كل يوم مطروحًا مُعذَّبًا بالجوع الشديد والعجز والقروح الكثيرة والفقر الشديد، والآلام التي تنتج من هذا كله لم يعِره اهتمامًا، بينما ضيوفه المنافقين المدللين يأخذون أكثر من حاجتهم، وهذا المسكين البائس كان يشتهى أن يأكل من الفتات الساقط من المائدة ولم يعطه أحد، لكن شيئًا من كل هذا لم يؤذه ولم يتفوه بكلمة تذمُّر ولم ينطق بتجديف، ومثل قطعة الذهب التي يزداد بريقها عندما تتعرَّض للحرارة الشديدة، كذلك هذا الفقير بالرغم من العذابات والبلايا التي أصابته لكنه كان نبيلاً وفاق الجميع وسما فوق كل هذه النكبات.

إننا كثيرًا ما نجد الفقراء يحسدون الأغنياء ويبغضونهم ويحقدون عليهم فى فكرهم، حتى إذا كان هؤلاء الفقراء

يحصلون على ما يحتاجون إليه من طعام وهناك من يقوم بخدمتهم، فكم بالحري هذا المسكين! لكنه كان حكيمًا جدًا وذا قلب نبيل. نعم كان أفقر من جميع الفقراء، وليس فقيرًا فقط بل سقيمًا عاجزًا، وليس له من يرعاه أو يعزّيه، بل أيضًا كان مطروحًا في المدينة وكأنه في صحراء بعيدة، هزيلاً ونحيلاً من شدّة الجوع ويرى الخيرات المتنوعة تتدفق على الرجل الغني كما من ينبوع، أما هو فكان مطروحًا كوجبة دائمة للكلاب تلحسه بألسنتها ولم يستطع أن يزجرها بعيدًا لشدة وهنه وعجزه.

هل فهمتم الآن أن الإنسان الذي لا يؤذى نفسه لا يقدر شيء أن يضرّه أو يؤذيه؟.

المصائب لا تضر بالإنسان الصالح

إنني أسترسل فى نفس الموضوع وأتساءل هل من أذى أو ضرر أصاب هذا الإنسان البطل نتيجة عجزه ومرض جسده؟ أو غياب الناس المُعزِّين؟ أو لحس الكلاب لجسده

المتقيح؟ أو نتيجة لقرب الشر منه وأعنى الرفاهية والبذخ وغرور ذلك الغنّي وعجرفته؟!.

هل هذه الأشياء أعاقته عن السلوك في الفضيلة؟ هل نالت من صبره وثباته؟ كلاّ إنه لم يتأذّ قط بل على النقيض كثرة العذابات التي عاناها وقسوة الرجل الغني زادته قوة، وأصبحت عربونًا له وضمانًا لإكليل نصرة في الأبدية وضاعفت من حسن مجازاته، ووعدًا لمكافأة عظيمة.

الحقيقة إن هذا المسكين تُوِّج وكُلِّل ليس فقط لفقره أو لمعاناته الجوع الشديد أو لاحتماله رؤية الكلاب وهى تلحس قروحه، لكن أيضًا لأنه كان على مقربة من الرجل الغني الذي كان يراه عدة مرات يوميًا ويغفل عنه تاركًا إياه يعانىهذه التجارب وحده، موقف الغنّي هذا كان مثل الوقود التي تضاف للنار لتزيدها اشتعالاً، نار الفقر والعجز والوحدة.

مرة ثانية أعود إلى المغبوط بولس الرسول وليس هناك ما يمنعني عن التكلم عنه مُجدَدًا، لقد عانى تجارب لاتُعَد، ومحن لا تُحصى، فهل نالت منه شيئًا؟ كلاّ بل تُوِّج بأكاليل النصرة؟ لقد عانى من الجوع والعرى، والبرد كان يلتهم جسده، ضُرِب على ظهره بالسياط ورُجِم بالحجارة وأُلقِى فى البحر.

يقول قائل إنه بولس الرسول ودعاه السيد المسيح نفسه. أقول لك وما رأيك في يهوذا الأسخريوطى لقد دعاه المسيح أيضًا وكان أحد الأثنى عشر، لكن لم تنفعه دعوته أو كونه من جملة الرسل لأنه لم يبالِ بالفضيلة، أما بولس

بالرغم من معاناته للجوع وافتقاره إلى القوت الضروري وتعرُّضه يوميًا لعذابات وتجارب عديدة لكنه سلك بغيرة عظيمة فى الطريق المؤدي إلى السماء، لكن يهوذا مع أنه دُعِى قبل القديس بولس وتمتع مثله بكل المميزات، ولُقِّن جوهر الحياة المسيحية، وتمتع بالأعياد المقدسة المهيبة، ومثل باقي الرسل نال سلطانًا على إقامة الموتى وشفاء المرضى وإخراج الشياطين، وكثيرًا ما سمع عظات عن الفقر، وما أطول الوقت الذي قضاه بمعيَّة السيد المسيح الذي ائتمنه على أموال الفقراء بغية أن يخفف عنه المرض (مرض السرقة)، ومع كل هذه النعم العظيمة لم يصِر إلى حال أفضل، ومع أن السيد المسيح كان يعلم أنه طمّاعًا وهلاكه مُحتَمًا لمحبته للمال، لم يعاقبه بل استودعه الصندوق كي يخفف عنه الوجع، ويشفيه من خطية الطمع قبل أن ينحدر في هوة الخطية المرعبة ويقع في شر عظيم.

البيت المبنى على الصخر

ما من أحد يقدر أن يؤذى الإنسان إذا لم يؤذِ الإنسان نفسه، لكن إن لم يشأ الإنسان أن يصلح نفسه ويضبطها من الداخل وبمصادره الخاصة فإن أحدًا لا يقدر أن ينفعه، لذلك قد رسمت لنا الأسفار المقدسة صورة واضحة ودقيقة لحياة رجال العهد القديم بدءًا من أبينا آدم وحتى مجيء السيد المسيح، وشملت كلا الفريقين وأعنى الذين هلكوا والذين نالوا أكاليل النصرة لجهادهم ونضالهم، هذا لكي يوضِّح لنا الكتاب بالأمثلة الحقيقية أنه لا يقدر أحد أن يؤذى الإنسان ما لم يضرّ الإنسان نفسه، حتى ولو شنَّ العالم كله حربًا ضروسًا ضده.

أقول لكم لا ضغوط الظروف المعيشية، ولا التباين في الفصول والأوقات الزمنية، ولا ظلم واتهامات القوم الأقوياء، ولا هبوب عواصف المكائد والدسائس، ولا المحن والبلايا العديدة المزدحمة، ولا كل الشرور التي تصيب الجنس البشرى مجتمعة تقدر أن تزعج الإنسان الصالح

للسقوط، لأن مثل هذه البيوت المبنية على الرمل تنهار من ذاتها دون أن يصدمها شيء، وأساساتها تهبط وتتناثر هنا وهناك، تمامًا مثل بيت العنكبوت الذي يهوى دون أن يمسَّه أحد، أما الحجر الصلب يبقى صامدًا لا يتأثر مهما أصابه.

الذين لا يسيئون إلى أنفسهم ليس فقط لا يسقطون، بل يصبحون أكثر قوة بالتجارب التي تحل بهم، أما الفريق الآخر الذين يخونون أنفسهم فإنهم يسقطون وينهارون ويهلكون دون أن يزعجهم أحد. ألم يهلك يهوذا على الرغم من عدم تعرُّضه لأي تجربة أو محنة، بل كان يتمتع بنعم جمة وتعزيات كثيرة فى حضرة الرب.

شعب إسرائيل فى البرية

هل ترغبون أن نتكلم عن الشعوب أيضًا؟ انظروا إلى الأمة اليهودية؛ لقد منحها الله نعمًا عظيمة، لقد سخَّر الله الخليقة كلها لخدمة هؤلاء اليهود.

عاش اليهود حياة عجيبة وغريبة، لم يتوجب عليهم الذهاب إلى الأسواق ليبتاعوا بالنقود ما يلزمهم، لم يحفروا قنوات وترع ولم يحرثوا الأرض بالمحراث، لم يعزقوا الأرض للزراعة لم ينثروا البذور لم يحتاجوا إلى المطر والرياح وتتابع فصول السنة والشمس والقمر ولا أي شيء من هذا القبيل، لم يدرسوا الحنطة ولم يخزّنوا في البيدر ولا استخدموا المذراة ليفصلوا القمح عن القش ولم يطحنوا غلّة، لم يبنوا أفرانًا ولم يجلبوا حطبًا وخشبًا ليخبزوا في منازلهم، لم يمسكوا بالرفش ولم يسنّوا منجلاً، لم يكونوا في احتياج إلى نسيج أو حياكة أو بناء أو انتعال الأحذية، لكن كلمة الله كانت كل شيء لهم، وكانت لهم مائدة معدة دائمًا مسبقًا دون تعب أو كد وأعنى المنَّ النازل من السماء كل يوم بيومه لم يكلفهم أي مشقة أو جهد، حتى أجسادهم قد نسيت شيئًا اسمه المرض، ملابسهم وأحذيتهم لم تبلى، أرجلهم لم تتورم بالرغم من الأسفار الطويلة، الأطباء والأدوية لم تذكر إطلاقًا لأن المرض والسقم كان بعيدًا عنهم تمامًا، فقد قيل: "**فأخرجهم بفضة وذهب ولم يكن في**

أسباطهم عاثر" (مز١٠٥: ٣٧). ومثل أناس انتقلوا من هذا العالم إلى آخر أفضل، حتى أشعة الشمس مع شدَّتها لم تصب رؤوسهم بأذى لأن السحب كانت تمنع عنهم الأشعة الحارقة وتظلل حولهم مثل مظلة متنقلة تحوط بهم. لم يحتاجوا إلى مصباح ليبدد الظلام ليلاً بل كان لديهم عمود نار ينير لهم ودليل يهديهم في الطريق خلال مسيرتهم في الصحراء الموحشة، أفضل من أعظم مرشد من البشر.

شعب إسرائيل لم يسيروا فقط على الأرض بل أيضًا دخلوا فى البحر وكأنه أرض يابسة (أعجوبة فوق قوانين الطبيعة) وطئوا بأقدامهم البحر الهائج وكانوا يسيرون وكأنهم يمشون على الصخور وبالفعل عندما بدءوا بوضع أرجلهم في البحر تحول إلى أرض يابسة وسهل منبسط، لكن عندما دخل المصريون وراءهم رجع البحر إلى طبيعته، وكان بمثابة قبر لفرعون وكل جنوده غرقوا فيه جميعًا، أمّا لشعب إسرائيل كان البحر مثل مركبة أقلَّتهم بسهولة إلى الضفة الأخرى، " **وانتهر بحر سوف فيبس وسيرهم في اللجج كالبرية** "(مز ١٠٦ : ٩).

والبحر الهائج المضطرب أظهر كل خضوع وطاعة وميَّز بين شعب إسرائيل والمصريين، وكان حارسًا لشعب إسرائيل أما للمصريين فكان سبب هلاكهم. وحدث هذا في يومٍ واحد.

وماذا أقول عن الصخور التي أنبعت ماءً للشعب في البرية؟ وماذا عن أسراب الطيور التي كانت تغطى وجه الأرض في كل صباح "**سألوا فأتاهم بالسلوى وخبز السماء أشبعهم**" (مز١٠٥: ٤٠).

وماذا عن العجائب في أرض مصر والمعجزات في القفر؟ ماذا عن الغلبة على الأعداء والانتصارات غير الدموية؟ لقد كانوا يُخضِعون أعداءهم وكأنهم ذاهبون في نزهة وليس في حرب، وبعد خروجهم من مصر انتصروا على أعدائهم بالترتيل والتسبيح وكأنهم في احتفال وشعائر دينية وليس في قتال، كل هذه العجائب حدثت ليس فقط لتلبية احتياجاتهم لكن أيضًا كي يحفظ الشعب الوصايا والعقيدة التي غرسها موسى النبي في أذهانهم عن معرفة الله، وكانت الأصوات التي تعلن عن وجود الله بينهم تنطق من كل جهة حولهم وكانت في كل مكان رحلوا إليه تسبح بمجد الله. البحر أعلن هذا عندما انشق وأصبح طريقًا مشوا عليها ثم عاد ورجع إلى طبيعته مرة أخرى، ومياه النيل أيضًا عندما تحولت إلى دم، والضفادع والبعوض والذبان والجراد أعلنت عن وجود الله، العجائب التي صُنِعت معهم في البرية: المن والسلوى وعمود النار وعمود السحاب، وجميع الأشياء الأخرى كانت بمثابة كتاب والمكتوب فيه لا يمكن أن يُمحَى بل يتردد يوميًا في ذاكرتهم، ويسمعون

صداه في أذهانهم ومع كل هذه العناية الإلهية العظيمة والواضحة والتمتع بمميزات لا يُعبَّر عنها، وبعد المعجزات الخارقة، وبعد دروس مستمرة ونصائح وإرشادات بالقول والفعل، بعد انتصارات مجيدة وغلبة فوق العادة، وبعد إشباع من الطعام وارتواء من ماء يتدفق بغزارة من الصخور، بعد مجد لا يوصف ولا ينطق به كان يكسوهم ومشهود له من الشعوب الأخرى، بعد كل هذا نراهم جاحدين للجميل فيعبدون العجل وينحنون أمام البعل رغم أن العجائب التي صنعها الله معهم في مصر لا تزال ماثلة أمام أعينهم وكانوا يتمتعون بالمزيد أيضًا.

أهل نينوى

والآن ننظر إلى أمة أخرى وشعب آخر بربري هم أهل نينوى؛ لم يتمتعوا بأي من هذه المميزات صغيرة أو كبيرة، لا أقوال الناموس ولا معجزات ولا أعمال خارقة صُنِعَت أمام أعينهم لكن عندما أتى إليهم رجل غريب نجا من البحر

يدخل مدينتهم ويخبرهم بأن نينوى ستنقلب، "**بعد أربعين يوماً ستنقلب نينوى**"(يون٣: ٤). وبمجرد أن سمعوا تحوَّلوا عن شرورهم وتركوا آثامهم وسلكوا في طريق التوبة، كي يندم الرب عن كلامه ولا يهلك المدينة ويرُدّوا الغضب الآتي من السماء، رجعوا عن كل نوع من الشر فنقرأ هذا " **فلما رأى الله أعمالهم أنهم رجعوا عن طريقهم الرديئة** " (يون٣: ١٠).

كيف رجعوا؟ إني أتساءل: إن شرهم كان عظيمًا ومعاصيهم لا يمكن أن يُعبَّر عنها وأمراضهم الروحية صعبة الشفاء لذلك قيل: "شرهم صعد أمامي" (يون١: ٢). وهذا يدل على مدى فظاعة شرورهم وكثرتها التي تراكمت فوق بعضها لدرجة أنها وصلت إلى السماء، كل هذه الشرور في وقت قصير جدًا عندما سمعوا كلمات قليلة من فم إنسان غير معروف، غريب نجا من البحر، في لحظة طرحوا عنهم الشرور وندموا ولبسوا مسوحًا وعلى الفور سمعوا البشرى المفرحة " **فرجع الله وندم على الشر الذي تكلم أن يصنعه بهم فلم يصنعه**" (يون٣: ١٠).

هل رأيت الآن أن الإنسان الصالح اليقظ لن تدركه أي أذية من إنسان، بل يقدر أن يردّ غضب السماء، بينما الإنسان الذي يسيء إلى ن فسه ويؤذيها بأفعاله حتى لو تمتع بمميزات لا تحصى فإنه لن يجنى أي منفعة. اليهود لم يستفيدوا ولم ينتفعوا من العجائب العظيمة التي صُنعَت أمام أعينهم، أما أهل ينوى لم يتأذوا بالرغم من أنهم لم يروا معجزات أو عجائب، هؤلاء البرابرة الغرباء بالرغم من جهلهم بكل الأسفار الإلهية وسكناهم بعيدًا عن أرض أورشليم، وحرمانهم من المعجزات لكن كان لديهم استعداد داخلي حسن فبمجرد أن حصلوا على فرصة استغلوها جيدًا وصاروا إلى حالٍ أفضل

الفتية الثلاثة

إني أتساءل ثانية هل المتاعب والضيقات التي أحاقت بالفتية الثلاثة أفسدت صلاحهم أو نالت من فضائلهم؟ لقد كانوا فتية صغارًا لم ينضجوا بعد لكنهم عانوا من مصاعب ثقيلة في السجن ألم يتركوا الوطن ونُفوا إلى أرض غريبة وابتعدوا عن الهيكل والمذبح والذبائح والتقدمات والقرابين وترتيل المزامير؟ ليس فقط ابتعدوا عن البيت لكن أيضًا عن كل صور العبادة لقد وقعوا في أيدي برابرة ذئاب وليس بشر، والذي أصعب من النفي ومعاناة السجن، إنهم كانوا بدون معلِّم، بدون نبي، بدون ناموس لأنه كُتِب: "**وليس لنا في هذا الزمان رئيس ولا نبي ولا قائد ولا محرقة ولا ذبيحة ولا تقدمة ولا بخور ولا موضع لتقريب البواكير أمامك**"(دا ٣٨: ٣). وعلاوة على ذلك ألقوهم في قصر الملك مثلما يُلقَون فوق الصخور والوعر وكأنهم في بحر مملوء بالشعاب والحجارة وعليهم أن يبحروا في هذا البحر الغاضب بدون مرشد أو ربّان أو بحّارة أو ملاّحين، كانوا محبوسين في قصر ليس أفضل من سجن، أما هم كانوا

مملوءين بكل حكمة روحية وسموا فوق الأرضيات واحتقروا كل شيء وجعلوا أجنحة الروح تحلِّق بهم عاليًا في السماء واعتبروا إقامتهم في القصر امتدادًا لمتاعبهم، وكانوا يفضّلون التمتع باستقلالهم في منزل بسيط بعيدًا عن البلاط الملكى. كانوا يتعرَّضون دائمًا إلى القسوة والوحشية، الملك يأمرهم بالأكل من أطايبه الفاخرة المُحرَّمة حسب ناموسهم، هذا الأمر كان بالنسبة لهم أصعب من الموت، ومثل حملان وسط ذئاب كثيرة كانوا مُجبَرين أن يختاروا بين أن يقادوا للتعذيب والموت أو يأكلوا من الأطعمة المُحرَّمة. ماذا فعل هؤلاء الفتية؟ إنهم في السبي غرباء وعبيد للذين يأمروهم بهذه الأشياء لكنَّهم لم يضطربوا لهذه الضيقة ولا ارتعبوا من قوة وجبروت المتسلطين عليهم ولا اتخذوا من هذه التهديدات مبررًا للخضوع والإذعان للأوامر لكنهم اجتهدوا في البحث عن وسيلة تمكِّنهم من عدم ارتكاب الخطية، على الرغم من كونهم عُزَّل تمامًا فلا يملكون المال كي يعطوه لهؤلاء الرجال ومن أين لهم المال وهم في الأسر؟، ليس لهم صداقات أو علاقات اجتماعية

ومن أين وهم غرباء؟، ولا يستطيعون أن يتغلبوا علي أعدائهم بالقوة وكيف يمكنهم ذلك وهم عبيد؟ ولا يقدرون أن يرهبوهم بكثرة العدد وهم ثلاثة فقط.

ماذا فعلوا إذن؟ لقد تقرَّبوا من الخصي المُكلَّف بخدمتهم وأقنعوه برغبتهم في عدم الأكل من أطايب الملك ولا خمر مشروبه وعندما رأوه خائفًا ومرتجفًا وقلقًا على وظيفته وسلامته وخطر الموت يراود فكره وصرَّح لهم قائلاً: " **أنا خائف سيدي الملك الذي عيَّن طعامكم وشرابكم فلماذا يرى وجوهكم أهزل من الفتيان الذين من جيلكم فتدينون رأسي للملك** " (دا ١: ١٠).

ولكي يخرجوه من خوفه طلبوا منه أن يقدِّم لهم معروفًا، وبقدر ما كانوا يعملون بكل قوَّتهم كذلك الله كان يقوّيهم. ليس فقط قوة الله هي التي جعلتهم يعملون أعمالاً لأجلها يستحقون المكافأة وحسن المجازاة، لكن أيضًا لأن البداية ونقطة الانطلاق كانت من صميم داخلهم وأظهروا أنهم نبلاء وشجعان واستحقوا معونة الله وبذلك كملت غايتهم.

هل أدركتَ الآن أن الإنسان الذي لا يؤذى نفسه لا يمكن

لأحد آخر مهما كان أن يؤذيه؟ ها هوذا صغر سن هؤلاء الفتية، والسبي إلى أرض غريبة، والوحدة والفقر وعدم وجود مُعزِّين، والأوامر الصارمة، وخوف من الموت يراود فكر الخصي، وسكناهم وسط أناس برابرة. وسادتهم هم أعداؤهم فى نفس الوقت، والأوامر تصدر من الملك مباشرة، وليس لهم أهل أو أقرباء، ومحرومين من الأنبياء والكهنة والتقدمات والذبائح وتلاوة المزامير ومع كل هذا لم يتأذوا (وشيئا من كل هذا لم يؤذهم) بل بالحرى صاروا ذائعي الصيت وبعد أن أتمّوا عملهم على أكمل وجه وزيَّنوا جبينهم بإكليل مجد الانتصار وحفظوا ناموسهم في أرض غريبة وداسوا بأقدامهم أوامر الطاغية ولم يخافوه، بعد ذلك دُعُوا إلى نضالٍ آخر:

هؤلاء الفتية تعرضوا إلى تجربة أخرى أشد قسوة، وأكثر عنفًا، لقد أوقدوا لهم الأتون ووضعوهم في تحدٍّ مباشر مع الملك ومع جيشه البربري، وكل القوى الفارسية سُلِّطَت ضدهم، وكل مكيدة دُبِّرَت ضدهم كي تضلَّهم وتقهرهم، أنواع كثيرة من العذابات، وأشكال عديدة من

التهديدات، وكل شيء حولهم يبعث على الخوف، والكلمات التي يسمعونها كانت أكثر ذعرًا وفزعًا مما كانوا يروه، ومع ذلك لم يستسلموا بل بذلوا كل ما بوسعهم كي لا يخطئوا إلى الله، لذلك لم ينلهم أي أذى بل ربحوا لأنفسهم أكاليل نصر مجيدة. لقد قيَّدوهم وألقوهم في أتون النار المُتّقِد كأمر نبوخذ نصر ملك بابل، لكن النار لم تحرقهم البتة بل أفادتهم وكانت سبب مجد لهم، وبالرغم من حرمانهم من الوطن ومن الهيكل(أكرر ثانية ما قلته) والمذبح والكهنة والأنبياء، ومع أنهم كانوا غرباء في بلد همجي وكانوا في وسط الأتون ومحاطين بهذه الجمهرة الوحشية، والملك يشرف على تعذيبهم بنفسه، برغم كل هذا نالوا إكليلاً مجيدًا ونصرًا نبيلاً، وسبَّحوا بهذه التسبحة الرائعة التي يسبح بها العالم منذ وقتهم إلى يومنا هذا وأيضًا الأجيال القادمة.

لذلك إن لم يؤذِ الإنسان نفسه لن يقدر آخر أن يؤذيه، وأنا لن أتوقف عن العزف على هذا الوتر دائمًا. إن السبي والعبودية والوحدة، وفقدان الأهل والوطن، والموت والحرق، وجيش كبير، وطاغية متوحش، كل هذا لم يقدر

أن يضرَّ أو يؤذي أو ينال من صلاح هؤلاء الفتية الأسرى الغرباء في أرض بعيدة، لكن تعذيب أعدائهم لهم كان بالحري سبب إيمان عظيم لهؤلاء الفتية. أي شيء إذن يقدر أن يؤذى الإنسان الصالح؟ لا شيء، حتى لو كان العالم كله ضده.

يقول قائل إن الله كان يقف بجانبهم ولم يدع النار تمسهم! نعم وأنت إذا أدَّيت واجبك وبذلت كل قوَّتك فإن معونة الله تعضدك بكل تأكيد.

خاتمة

إن السبب الذي لأجله أتعجب من هؤلاء الفتية وأعلن تطويبهم وأحسدهم لأجله ليس لأنهم كانوا يتمشون في النار أو قهروا قوتها، لكن لأنهم أُلقوا في النار وطُرِحوا في الأتون من أجل إيمانهم الحقيقي وعقيدتهم الراسخة وهذا يمثل كمال النصرة، والإكليل الذي وُضِع على جبينهم استحقوه منذ اللحظة التي نطقوا فيها بهذه الكلمات وقالوا بكل شجاعة للملك: " **لا يلزمنا أن نجيبك عن هذا الأمر، هوذا يوجد إلهنا الذي نعبده يستطيع أن ينجينا من أتون النار المتقدة ومن يدك أيها الملك وإلاَّ فليكن معلوماً لك أيها الملك إننا لا نعبد آلهتك ولا نسجد لتمثال الذهب الذي نصبته** " (دا ٣: ١٦- ١٨). بعد أن نطقوا بهذا الكلام أنا أعلنتهم منتصرين وظافرين، بعد هذه الكلمات استحقوا جائزة النصرة وأسرعوا إلى إكليل المجد الذي للشهادة، وبعد الاعتراف بالكلمات تابعوه وأكملوه باعتراف الأعمال، وعند نزولهم في الأتون، قدَّمت النار احترامًا لأجسادهم وحلَّت قيودهم وسمحت لهم أن يمشوا فيها دون خوف، وتخلَّت

عن طبيعتها الحارقة، وأتون النار تحوّل إلى نبع ماء بـــارد. هذه الأعجوبة كانت بنعمة الله وقدرته الإلهية.

هؤلاء الأبطال حتى قبل حدوث هذه المعجزة بمجرد أن وضعوا أقدامهم في النيران أعلنوا نصرتهم واستحقوا الغلبة ووضعوا أكاليل على رؤوســـهم، وأعلنـــوا أنهـــم فـــائزون ومنتصرون هنا في الأرض وفى السماء لدرجـــة أنهـــم لـــم يحتاجوا لشيء آخر يعلن عن نصرتهم ويزيد من شهرتهم.

ماذا تقول أنت عن هذه الأشياء؟ هل تم سبيك من قبـــل أو طُرِدت من موطنك؟ هاهم أيضًا، هل عانيت السبي وكنت عبدًا للبربر؟ حسنًا هذا أصاب هؤلاء أيضًا، هل حُرِمَت مـــن الذين يقدِّمون لك النصيحة ويرتِّبون أمورك؟ هم أيضًا، هـــل قُيِّدت وأُلقِيت في النار وقُدِّمت للموت؟، أعتقد أنه مـــا مـــن شيء يمكن أن تخبرني به يكون أشد قسوة من هذا، كل هذه الأشياء اجتازها هؤلاء الفتية وخرجوا منها وهم أكثر مجدًا، نعم وذي صيت ذائع وضاعفوا كنزهم في الســـماء،واليهود الذين تمتعوا بالهيكل والمذبح وتابوت العهـــد والشـــاروبيم وكرسي الرحمة والحجاب وفِرَق الكهنة والخدمـــة اليوميـــة

والذبائح صباحًا ومساءً وأقوال الأنبياء تتردد في أذانهم، ويحملون معهم ذكريات المعجزات والعجائب التي صنعها الله معهم في مصر وفى البرية، وقصص هذه الأمور محفورة على أعمدة أبوابهم، وتمتعوا بمزايا كثيرة في ذلك الوقت وقوَّات فوق العادة ومعونات من كل نوع، لكن كل هذه لم تنفعهم بل بالحري استخدموها ضد أنفسهم. أقاموا الأصنام في الهيكل وقدموا أولادهم وبناتهم ذبائح تحت كل شجرة وفى كل مكان في فلسطين، قدَّموا ذبائح مُحرَّمة ودنسة، واقترفوا أفعالاً كثيرة أخرى أكثر بشاعة، لكن هؤلاء الفتية بالرغم من أنهم كانوا في وسط شعب بربري مُعادٍ لهم وكان عملهم في بيت الطاغية، وكانوا محرومين من كل ما يعزِّيهم - كما ذكرت لكم - واقتيدوا إلى الإعدام وتعرضوا للحرق، لكن مع كل هذا لم يصبهم أي أذى صغيرًا أو كبيرًا لكنهم انتقلوا من مجدٍ إلى مجد.

بمعرفة هذه الأمور وجمع الأمثلة والشواهد من الأسفار المقدسة الموحى بها سوف نجد نماذج لأشخاص كثيرين نقتدي بهم، وندرك أنه لا أوقات أو أحداث عصيبة ولا إجبار

أو قوة أو سلطة الملوك الظالمة المستبدة تعطى لنا أعـذارًا كي نأثم ونخطئ.

والآن أُوجِز محاضرتي بتكرار ما قلته في البداية:

إذا تأذّى إنسان وناله ضرر فإن هذا يرجع إليه هو ولـيس بسبب الآخرين حتى لو أن هناك عديـدين يسـيئون إليـه ويقهرونه، وإذا اجتمعت كل المخلوقات الكائنة على الأرض وفى البحر ضد إنسان لتهاجمه وتشن الحرب عليه لا تقـدر أن تؤذيه أو تضرّه، إذا كان يقظـاً ساهرًا حكيمًا في الرب ولم يضرّ هو نفسه.

والآن أتوسل إليكم كونوا حذريـن ويقظين كـل حـين واحتملوا بشجاعة وصبر كل الأمور المؤلمـة التـي تـأتى عليكم، لكي تنالوا البركات الأبديـة في المسيح يسوع ربنا الذي له المجـد والقـوة الآن وإلى الأبد آمين.

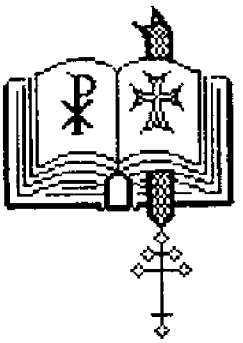

مصادر الكتاب

١- الكتاب المقدس.
٢- The Nicene & Post-Nicene fathers
٣- القطمارس للقمص أغناطيوس الأنبا بيشوى
٤- Theophil dictionary

فهرس الكتاب

تقديم	١٠
كلمة شكر	١٤
هدف المقال	١٦
الشر وصلاح الإنسان	١٩
الفضيلة ومن أين تنشأ	٢٢
هل يؤذى الشيطان الإنسان	٢٧
التجارب تؤدى إلى المجد	٣١
الحرمان من المال ليس شرًا	٣٥
محبة المال أصل كل الشرور	٤٠
الفقراء والأغنياء	٤٤
المال سبب أوجاع الروح	٤٧
لعازر المسكين	٥٠
المصائب لا تضر بالإنسان الصالح	٥٣
البيت المبنى على الصخر	٥٧
شعب إسرائيل فى البرية	٥٩
أهل نينوى	٦٤
الفتية الثلاثة	٥٨
خاتمة	٧٤
مصادر الكتاب	٧٨